الإبداع في التسبيح

مصطفى تعمير العاني

هذا المعنى هو الذي يقول به الشيعة وأخذوه عن أئمتهم عليهم السلام، وهو معنى استعمل في النصوص الواردة عن رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله، وسيأتي ذكرها.

البداء في روايات أهل البيت (ع):

١ ـ روي عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام أنه قال: «ما عُبد الله بشيء مثل البداء»[١].

٢ ـ وروي عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنه قال: «ما عُظّم الله بمثل البداء»[٢].

وقد فسروا عليهم السلام البداء هذا في موارد أخرى منها:

٣ ـ روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من

---

(١) الشيخ الصدوق: كتاب التوحيد/ ٣٣٢، الشيخ الكليني: أصول الكافي ١/ ١٤٦.

(٢) الشيخ الصدوق: كتاب التوحيد/ ٣٣٢، الكليني: أصول الكافي ١/ ١٤٦.

زعم أن الله عز وجل يبدو له في شيء لم يعلمه أمس فابرؤوا منه»[1].

٤ ـ وروي عنه عليه السلام أيضاً قوله: «إن الله يقدّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويمحو ما يشاء، ويثبت ما يشاء، وعنده أم الكتاب» إلى أن يقول: «فكل أمر يريده الله فهو في علمه قبل أن يصنعه، ليس شيء يبدو له إلا وقد كان في علمه، إن الله لا يبدو له من جهل»[2].

٥ ـ وروي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «من زعم أن الله تعالى بدا له في شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم»[3].

٦ ـ وحول علم الله تعالى ورد أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله

---

(١) الشيخ الصدوق: كمال الدين/ ٧٥، المجلسي: بحار الأنوار ٤/ ١١١.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار ٤/ ١٢١، تفسير العياشي ٢/ ٢١٨.

(٣) الصدوق: الاعتقادات/ باب الاعتقاد في البداء/ ٤١، محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية/ ٤٠.

تعالى بالأمس؟ قال: «لا، من قال هذا فأخزاه الله» فقال السائل: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: «بلى، قبل أن يخلق الخلق»[1].

هذه الروايات وأمثالها هي التي اعتمد عليها أهل العلم في الأخذ بفكرة البداء، وهي تنطلق من المعنى الاصطلاحي المتقدم، إذ كيف يعبد الله تعالى ويعظم بنسبة الجهل إليه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فالمراد من البداء الذي يعبد الله به ويعظم ما يثبت لله تعالى تمام القدرة والاختيار ابتداء واستمراراً، ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ ولا يوجد في الروايات أية رواية تدل على نسبة البداء بالمعنى الذي يستلزم الجهل إليه تعالى.

البداء في أقوال العلماء:

علماء الشيعة الإمامية منذ القديم حتى عصرنا الحاضر جميعهم على قول واحد في البداء بالمعنى الذي

---

(١) المصدر: التوحيد/ ٣٣٤، الكليني: الكافي ١/ ١٤٧.

ذكرناه، ونحن هنا نستعرض نماذج من أقوالهم لمن أحب الاطمئنان، ومن رام المزيد فليرجع إلى أي كتاب من كتب الكلام عندهم ليرى ذلك.

١ ـ الشيخ الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١ هـ):

قال: «ليس البداء كما يظنه جهال الناس بأنه بداء ندامة ـ تعالى الله عن ذلك ـ ولكن يجب علينا أن نقر لله عز وجل بأن له البداء، معناه: أن له أن يبدأ[1] بشيء من خلقه فيخلقه قبل شيء، ثم يعدم ذلك الشيء ويبدأ بخلق غيره، أو يأمر بأمر ثم ينهى عن مثله، أو ينهى عن شيء ثم يأمر بمثل ما نهى عنه[2]، وذلك مثل نسخ الشرائع وتحويل القبلة وعدة المتوفى عنها زوجها[3]. ولا يأمر

---

(١) لا يتوهم من هذا أنه أخذ البداء من (البدء) ـ مهموزاً ـ فتأمل قبل كلامه.

(٢) لا يخفى أنه جعل مفهوم البداء عاماً شاملاً للنسخ في الأحكام فضلاً عن الأمور التكوينية.

(٣) ذهب بعض الفقهاء إلى أن عدة المتوفى عنها زوجها كانت سنة كاملة ثم نسخت، واستدل بقوله تعالى ﴿وصية =

عباده بأمر في وقت إلا وهو يعلم أن الصلاح لهم في ذلك الوقت في أن يأمرهم بذلك، ويعلم أن في وقت آخر الصلاح لهم في أن ينهاهم عن مثل ما أمرهم به، فإذا كان ذلك الوقت أمرهم بما يصلحهم، فمن أقر لله عز وجل بأن له أن يفعل ما يشاء ويعدم ما يشاء ويخلق مكانه ما يشاء، ويقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، ويأمر بما شاء كيف شاء، فقد أقر بالبداء»[1].

وقال: «وإنما البداء الذي ينسب إلى الإمامية القول به هو ظهور أمر، يقول العرب بدا لي شخص أي ظهر لي، لا بداء ندامة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً»[2].

٢ ـ الشيخ المفيد: محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ):

«قول الإمامية في البداء طريقه السمع دون العقل،

= لأزواجهم متاعاً إلى الحول﴾ [سورة البقرة: ٢٤٠].

(١) الصدوق: التوحيد/ ٣٣٥ (باب البداء).

(٢) الصدوق: كمال الدين/ ٧٥ (اعتراض الزيدية على الإمامية والجواب عنه).

وقد جاءت الأخبار به عن أئمة الهدى عليهم السلام، والأصل في البداء هو الظهور..

وتقول العرب: قد بدا لفلان عمل حسن، وبدا له كلام فصيح، كما يقولون: بدا من فلان كذا، فيجعلون اللام قائمة مقام (من) نائبة عنها، فالمعنى في قول الإمامية: (بدا لله في كذا) أي ظهر منه، وليس المراد به تعقب الرأي ووضوح أمر كان قد خفي عنه...»[1].

وقال في موضع آخر:

«وأقول في معنى البداء ما يقول المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله من الإفقار بعد الإغناء، والإمراض بعد الإعفاء، والإماتة بعد الإحياء، وما يذهب إليه أهل العدل خاصة من الزيادة في الآجال...»[2].

---

(1) الشيخ المفيد: تصحيح الاعتقاد/65 (فصل في معنى البداء).

(2) المفيد: أوائل المقالات/ 80 (القول في البداء والمشيئة).

٣ ـ السيد المرتضى علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ):

«وأما البداء فقول هشام (أي ابن الحكم) وأكثر الشيعة هو قول المعتزلة بعينه في النسخ، وإنما خالفوهم تلقيبه بالبداء لأخبار رووها، ولا معتبر بالألفاظ والخلاف فيها»[1].

ومراده من قول المعتزلة في النسخ ما زعموه من وقوعه في أعيان آيات القرآن المنسوخة لا في أحكامها، وهو ما يعبّر عنه بنسخ التلاوة، ولا يقول به الإمامية، وإنما أورده لتقريب المعنى فقط.

٤ ـ الشيخ الطوسي محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ):

«البداء حقيقته في اللغة هو الظهور... وقد يستعمل ذلك في العلم بالشيء بعد أن لم يكن حاصلاً، وكذلك في الظن، ولما إذا أضيفت هذه اللفظة إلى الله

(١) عبد الله نعمة: روح التشيع/٤٢٨ ـ ٤٢٩.

تعالى، فمنه ما يجوز إطلاقه عليه ومنه ما لا يجوز. فأما ما يجوز من ذلك فهو ما أفاد النسخ بعينه، ويكون اطلاق ذلك عليه على ضرب من التوسع، وعلى هذا الوجه يحمل جميع ما ورد عن الصادقين عليهما السلام من الأخبار المتضمنة لإضافة البداء إلى الله تعالى، دون ما لا يجوز عليه من حصول العلم بعد أن لم يكن. ويكون وجه إطلاق ذلك على الله تعالى التشبيه، وهو أنه إذا كان ما يدل على النسخ يظهر به للمكلفين ما لم يكن ظاهراً لهم، ويحصل لهم العلم به بعد أن لم يكن حاصلاً لهم أطلق على ذلك لفظ البداء»[1].

ويؤكد ذلك في مكان آخر فيقول:

«.. لأن البداء في اللغة هو الظهور، فلا يمتنع أن يظهر لنا من أفعال الله تعالى ما كنا نظن خلافه، أو نعلمه ولا نعلم شرطه»[2].

---

(1) الطوسي: عدة الأصول ٢/٢٩.
(2) الطوسي: كتاب الغيبة/ ٤٣٠.

هذه عبارات عدد من الأعلام المتقدمين، وأما المتأخرون فهم أكثر من أن تحصيهم هذه الرسالة المختصرة[1].

ومنه يظهر أن البداء الذي يعتقده الشيعة الإمامية وينسبونه إلى الله عز وجل بخلاف ما يفسره غيرهم به، وينسبه إليهم تجنياً عليهم.

جذور المسألة التاريخية:

مما تقدم يظهر أن الاعتقاد بفكرة البداء بالمعنى الذي يقول به الشيعة الإمامية لا يتنافى مع أصول الإسلام، إلا أن الذين يفتشون عن مواطن للطعن والتشنيع

---

(1) راجع: المجلسي: بحار الأنوار ٤/١٢٣، ومرآة العقول ٢/١٤٣، السيد عبد الحسين شرف الدين: أجوبة مسائل جار الله/١٠١، السيد عبد الله شبر: مصابيح الأنوار ١/٣٣، السيد محسن الأمين: لفض الوشيعة/٤٠٩، السيد أبو القاسم الخوئي: البيان/٣٩٣، الشيخ علي الجيمي: الدر المنثور ٢/٢٦، الكراجكي: كنز الفوائد ١/٢٢٧ . وغير ذلك من كتب ومصادر الشيعة.

على أتباع أهل البيت عليهم السلام، وجدوا في ظاهر لفظ البداء ما استغلوه لتحقيق أغراضهم، وغالى بعضهم فاتهم الشيعة الإمامية بأنهم أخذوا الفكرة من اليهود فقال: «وبداء الشيعة في كتبها عقيدة يهودية محضة...»[1].

وفاته أن اليهود ينكرون البداء بالنحو الذي يعتقده الشيعة كما ينكرون النسخ أيضاً. بل يصرح أئمة أهل البيت عليهم السلام بأن البداء هو رد على اليهود الذين قالوا: «إن الله قد فرغ من الأمر».

وهذا ما تجده في حديث الإمام الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي الذي أنكر البداء، فقال عليه السلام:

«ضاهيت اليهود في هذا الباب».

قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت اليهود؟.

قال: «قالت اليهود ﴿يد الله مغلولة﴾ يعنون أن الله فرغ من الأمر، فليس يحدث شيئاً، فقال الله عز وجل:

---

(١) موسى جار الله: الوشيعة/٢٠٨.

﴿غلّت أيديهم ولُعنوا بما قالوا﴾»[1].

وقد ورد ذلك أيضاً في كلام العلامة المجلسي رضوان الله عليه[2]. وأورد الشيخ الصدوق مسألة البداء في مقام الردّ على اليهود فقال:

«إن اليهود قالوا إن الله قد فرغ من الأمر. قلنا: بل هو تعالى كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن، يحيي ويميت ويخلق ويرزق ويفعل ما يشاء. وقلنا: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾، وأنه لا يمحو إلاّ ما كان ولا يثبت إلا ما لم يكن»[3].

وللكراجكي كلام قيم في إبطال ما ذهب إليه اليهود من إنكار للنسخ والبداء[4]. كل ذلك يدلّ على أن الشيعة قد خالفوا اليهود بالتزامهم بهذه الفكرة، وأنها ليست

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤/ ٩٦، والآية في سورة المائدة/ ٦٤.

(٢) المجلسي: مرآة العقول ٢/ ١٣١، وبحار الأنوار ٤/ ١٣٠.

(٣) الصدوق: الاعتقادات/ ٤٠.

(٤) الكراجكي: كنز الفوائد ١/ ٢٢٥.

يهودية الجذور كما يزعم من ليس له انصاف ومن يلقي الكلام على عواهنه بلا تدبر ولا روية.

ويحاول البعض الآخر أن يتهم الشيعة الإمامية أنهم أخذوا الفكرة من المختار بن عبيدة الثقفي، زاعماً أنها من مخترعاته حين بلغ الصراع أشده بينه وبين مصعب بن الزبير، فقالوا: كان المختار وعد أصحابه بالنصر والظفر ثم عندما انهزموا قال لهم: لقد وعدني ربي بالنصر ثم بدا له، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت...﴾[1].

ولا شك أن هذه التهمة ألصقت بالمختار في سياق الصراع ذاته، فإنه قد تعرض للكثير من الهجمات التشهيرية والإعلامية لأنه حمل راية الثأر للإمام الحسين عليه السلام وتتبع قتلته وقتلة أهل بيته وأصحابه فلقي

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٣٢)، البغدادي: الفرق بين الفرق/٣٣، هاشم معروف الحسني: دراسات في الحديث والمحدثين/٢٢١، عبدالله نعمة: روح التشيع/١٢٧.

عليهم من جهة، ولأنه خاض صراعاً مع الزبيريين ورفض الانصياع لهم، ولا شك أن من أقتنك أسلحة الحرب التشهير والتشنيع.

ومع قطع النظر عن صحة ما ينسب إليه وعدمه، فإن المختار الثقفي ليس من أئمة الشيعة ولا من علمائهم الذين يرجعون إليهم، واستغلال هذه الفكرة من قبله لا يعني أنه هو الأصل فيها وأنه مبتكرها.

ويزعم سليمان بن جرير الزيدي الذي انحرف عن أهل البيت عليهم السلام وأظهر عداوته لهم، أن الأئمة عليهم السلام وضعوا لأتباعهم هذه المقالة ومقالة التقية لكي لا يظهروا مع شيعتهم على كذب[1]!! وجاء من استغل هذه الفرية للطعن على أتباع أهل البيت عليهم السلام وعلى أئمتهم، بمزاعم أعدائهم والحاقدين عليهم.

بهذا الشكل وبهذا التسلسل انطلقوا في تاريخ

---

(١) النوبختي: فرق الشيعة/ ٦٤، الأشعري القمي: المقالات والفرق/ ٧٨.

المسألة للهجوم بلا هوادة على القائلين بالبداء قديماً وحديثاً.

والانصاف أن الشيعة الإمامية أخذوا فكرة البداء عن أهل البيت المعصومين عليهم السلام ومن خلال الأحاديث التي استعرضنا قسماً منها، وتركنا الباقي اختصاراً، وأهل البيت عليهم السلام لم يخترعوا هذا الاصطلاح، فقد كان موجوداً وله جذوره في لغة العرب، وفي السنة النبوية الشريفة وبالمعنى الذي بيّنوه ووضحوه، بل إن هذا المعنى كان هو المعروف والمستعمل لولا القشرة التي أثيرت لأغراض لا تخفى.

فقد رووا عن جد النبي صلى الله عليه وآله عبد المطلب أنه قال مخاطباً ربّه يوم جاء أصحاب الفيل لمهاجمة بيت الله الحرام.

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمرٌ ما بدا لك[1]

---

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 1/ 144.

وقد فسروا مراده من قوله «فأمرٌ ما بدا لك» بأنه ظهور قضاء قد كان منه في سابق علمه، وهو وإن لم يكن متعيناً إلا أنه يكفينا شاهداً على قدم هذا الاصطلاح، إلى ما قبل الإسلام.

وقد وردت من طرقنا عدة روايات تشهد بأن عبد المطلب أول من قال بالبداء، وروي أنه كان يعلم بنبوة محمد بن عبد الله ﷺ منذ طفولته، وقد أرسله يوماً في رعاء فتأخر، فطلبه وكنا لم يجده قال: «يا ربّ أتهلك آلك؟! إن تفعل فأمرٌ ما بدا لك»[1].

كما نجد أيضاً هذا الاصطلاح في النصوص الواردة في كتب الحديث عند أهل السنة ومنها:

١ ـ ما روي أن ثلاثة من بني إسرائيل، أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً... إلى

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ١٥/١٥٧، الكليني: أصول الكافي ١/١٤٧.

آخر الحديث[1].

وقد فسره الحافظ العسقلاني بقوله: أي سبق في علم الله فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً، لأن ذلك محال في حق الله تعالى[2] وهو تفسير صحيح، وهو نفسه ما نفسر به ما ورد في نصوصنا.

٢ ـ ما روي أن رسول الله ﷺ قال: «يجمع الله عز وجل الأمم في صعيد يوم القيامة فإذا بدا لله عز وجل أن يصدع بين خلقه مثل لكل ما كانوا يعبدون فيتبعونهم حتى يقحمونهم النار...» إلى آخر الحديث[3].

هذان نصان مرويان في كتب السنة بنفس المعنى

---

(١) البخاري: الجامع الصحيح/ كتاب الأنبياء/ باب ٥١ حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، ورواه ابن الأثير في النهاية مادة (بدا)، وقال: أي قضى بذلك وهو لا يناسب التعدية باللام.

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٦/ ٥٠٢.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند ٤/ ١٠٧.

الذي تقول به وبنفس الاصطلاح وهو مقبول عندهم، فلماذا لا يكون مقبولاً منا أيضاً؟!.

ثم إن فكرة البداء بالمعنى الذي نعتقده يدل عليها كل ما ورد في كتب الفريقين من أن الدعاء يرد القضاء، وأن الصدقة تدفع البلاء، وأن البر وصلة الرحم تزيد في العمر والرزق، وأن الشكر يزيد النعم، وأمثال ذلك، وهو كثير جداً[1].

وقد تبين من كل هذا أنّ الفكرة لها جذور إسلامية في الكتاب والسنة المطهرة، وأصول العقيدة، وكذلك الاصطلاح، فلا معنى للهجوم العنيف الذي يشن على القائلين بالبداء إلا إذا زور الواقع وحرفت الحقائق، وفسّر الكلام بما لا يقصده المتكلم ولا تدلّ عليه الشواهد.

---

(1) راجع مسند أحمد بن حنبل ٥/٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٦، وسنن ابن ماجة/ باب القدر ١/٢٤، وسنن الترمذي/ باب ما جاء لا يرد القضاء إلا الدعاء ٣/٣٠٣، والمستدرك للحاكم ١/٤٩٣، وغير ذلك.

ثمرات الاعتقاد بالبداء:

إذا كان البداء بالمعنى المتقدم لا يتنافى مع أصول الإسلام، ولا يلزم منه محذور نسبة الجهل إلى الله تعالى، فهل هناك ثمرات عملية تستدعي اهتمام أئمة أهل البيت عليهم السلام به، إلى هذه الدرجة، وتستدعي تحمل تبعات القول به من هجمات عنيفة على المذهب ورموزه؟.

الانصاف أن للاعتقاد بالبداء أكثر من ثمرة وعلى أكثر من مستوى، فما هي هذه الثمرات؟.

أولاً: على مستوى العقيدة.

هو اعتراف وإقرار من العبد بقدرة الله المطلقة وسلطانه الشامل والدائم على الكون، وبإرادته النافذة في الأشياء. حول هذه النقطة يقول الشيخ الصدوق رضوان الله عليه:

«فمن أقر لله عز وجل بأن له أن يفعل ما يشاء ويعدم ما يشاء ويخلق مكانه ما يشاء ويقدم ما يشاء ويؤخر

ما يشاء، ويأمر بما يشاء كيف شاء فقد أقر بالبداء، وما عظم الله عز وجل بشيء أفضل من الإقرار بأن له الخلق والأمر والتقديم والتأخير، وإثبات ما لم يكن ومحو ما قد كان»[1].

وعليه فالبداء هو التوحيد الكامل الذي ليس فيه نقص، فهل يعاب على المؤمن التزامه بالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه شيء؟!.

ثانياً: على مستوى السلوك.

«على المستوى العملي والسلوكي للإنسان يترك القول بالبداء أثراً ايجابياً مهماً، إذ يوجب انقطاع العبد إلى الله تعالى، والتوجه نحوه بالدعاء لكفاية مهماته وتوفيقه لطاعته، وإبعاده عن معاصيه، بل يدفعه نحو فعل الطاعات والبر بالآباء والأمهات، وصلة الأرحام ورعاية مال الأيتام والفقراء والمساكين، لعله يوفق لتحصيل الآثار المترتبة على هذه الأعمال التي هي موارد للبداء

---

(1) الصدوق: التوحيد/ص٣٣٠.

وعد الله سبحانه عباده بها.

بل تبعث عقيدة البداء الأمل عند العصاة والمذنبين وتدعوهم إلى التوبة والاصلاح وتبعدهم عن اليأس والقنوط.

قال تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1].

وقال: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2].

وقال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[3].

وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[4]. وأمثال ذلك من الآيات الشريفة.

---

(١) سورة الرعد: ١١.
(٢) سورة الأنفال: ٥٣.
(٣) سورة الطلاق: ٢ ـ ٣.
(٤) سورة إبراهيم: ٧.

وروي عن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «عليكم بالدعاء فإن الدعاء لله والطلب إلى الله يرد البلاء وقد قدّر وقضي ولم يبق إلا امضاؤه، فإذا دعي الله عز وجل وسئل صرف البلاء، صرفه»[1].

وروي عن الباقر عليه السلام: «صلة الرحم تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسيء في الأجل»[2].

وعن الرضا عليه السلام: «يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله ثلاثين سنة، ويفعل الله ما يشاء»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»[4].

---

(١) الكليني: أصول الكافي ٢/ ٤٧٠.
(٢) الكليني: أصول الكافي ٢/ ١٥٠.
(٣) الكليني: أصول الكافي ٢/ ١٥٠.
(٤) الكليني: أصول الكافي ٢/ ١٠٠.

وعنه ﷺ أيضاً: «باكروا بالصدقة فإن البلايا لا تتخطاها»[1].

هذه نماذج من النصوص وأمثالها كثيرة جداً لمن أراد الاستقصاء.

فالاعتقاد بالمحو والإثبات وتبعية ذلك للعوامل والشروط التي وردت فيها النصوص الشرعية من شأنه أن يدفع الإنسان نحو السعي والعمل لتوفير تلك الشروط والعوامل الموجبة لتحقق البداء وتغيّر القضاء نحو الأفضل، ومن شأنه أن يمنع الإنسان من التقصير ومن تحقيق العوامل الموجبة لتبدل القضاء نحو الأسوء.

وهذا هو سرّ اهتمامهم عليهم السلام بالبداء وتأكيد الروايات عليه، إضافة إلى ما تقدم من الردّ على اليهود الذين قالوا: فرغ الله من الأمر، وعطلوا قدرته.

---

(1) جامع أحاديث الشيعة ٨/٤١٨.

أين يجري البداء؟

البداء لا يجري في كل أمر، وإنما يقع في خصوص القضاء غير المحتوم، أما المحتوم فهو لا يختلف ولا يتبدل، وتوضيح ذلك أن قضاء الله تعالى على نوعين:

١ ـ القضاء المحتوم.

وهذا النوع من قضائه تعالى يمكن أن يكون على نحوين:

الأول: قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه، فعلمه مخزون استأثر به لنفسه. وهذا القسم لا يكون مورداً للبداء فيه، فهو لم يظهر لأحد حتى يتحقق فيه البداء، وشرط البداء أن يكون على خلاف المقتضيات المعلومة للخلق أو المظنونة لهم، وقد ورد في بعض الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن البداء ينشأ من هذا العلم، فهو الذي يقع التبدّل إليه لا فيه.

فإذا فرضنا شخصاً كان في قضاء الله أن يعيش مئة

واحدة، وأطلع الله تعالى نبيه ﷺ أو وليه عليه السلام على ذلك، لكن ذلك الشخص وصل رحمه أو فعل من وجوه البر ما اقتضى الزيادة في العمر والإنساء في الأجل فزاد الله تعالى له في عمره عشر سنوات، ففي علم الله المخزون أن هذا الشخص سيفعل ما يوجب الزيادة في العمر وأنّ الله سينسيء في أجله بهذا المقدار، وأمّا ما كان مقدراً سابقاً فهو قضاء موقوف، وقع فيه البداء.

فهنا في المثال تقديران تقدير قد يكون معلوماً للخلق وقد لا يكون معلوماً إلا انه تقدير أولي يقطع النظر عن موجبات التغيير وهذا وقع فيه البداء، وتقدير علمه عند الله غير معلوم للخلق لا يتغير ولا يتبدل بل كان منه التغيير والتبديل وإليه، فيقال أنه هو منشأ البداء، وذاك الأول مورد البداء.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن لله علمين علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو، من ذلك

يكون البداء، وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه، فنحن نعلمه»[1].

وفي قوله عليه السلام «من ذلك يكون البداء» إشارة إلى المنشأ، لا إلى المورد، كما لا يخفى.

النحو الثاني من القضاء المحتوم هو القضاء الذي أطلع عليه ملائكته وأنبياءه، وأنه سيقع حتماً، وهو قضاء تعلم حتميته بإخبار من الله تعالى، وهذا أيضاً لا يقع فيه البداء، وإن اختلف عن الأول بأنه لا يكون منشأ للبداء، أي لا يكون البداء منه لأنه معلوم ظاهر للخلق، وما يقع منه البداء يفترض أن لا يكون ظاهراً لهم ولو في مرحلة ما قبل الوقوع والتحقق، بل هو مما استأثر الله بعلمه، كما دلّ الخبر السابق عليه.

---

(1) الكليني: أصول الكافي ١/١٤٧، والمجلسي: بحار الأنوار ٤/١٠٩.

٢ ـ القضاء الموقوف أو غير المحتوم:

وهو القضاء الأولي القابل للتغيير، وهذا النوع من القضاء تعلمه الملائكة والأنبياء وربّما أبدوه للناس، إلا أنه لم تعلم حتميته، لكونه موقوفاً عنده تعالى على أن لا تتعلق مشيئة منه بخلافه، وهذا القسم هو الذي يقع فيه البداء، وهو أشبه بالمقتضيات التي تتوقف فعليتها على تحقق الشرط وعدم الموانع.

فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿قضى أجلاً وأجل مسمّى عنده﴾ قال: «هما أجلان، أجل محتوم وأجل موقوف»[1].

وروي عنه عليه السلام أيضاً: «من الأمور أمورٌ موقوفة عند الله يقدّم منها ما يشاء ويؤخر منها ما يشاء»[2].

---

(١) الكليني: أصول الكافي ١/ ١٤٧.
(٢) الكليني: أصول الكافي ١/ ١٤٧.

وروي عنه عليه السلام أيضاً: «بينا داود على نبينا وآله وعليه السلام جالس وعنده شاب رث الهيئة يكثر الجلوس عنده ويطيل الصمت، إذ أتاه ملك الموت فسلّم عليه وأحدّ ملك الموت النظر إلى الشاب، فقال داود عليه السلام: نظرتَ إلى هذا؟! فقال: نعم، إني أمرت بقبض روحه إلى سبعة أيام في هذا الموضع، فرحمه داود، فقال: يا شاب هل لك امرأة؟ قال: لا، وما تزوجت قطّ، قال داود: فأتي ثلاثاً (رجلاً كان عظيم القدر في بني إسرائيل) فقل له: إن داود يأمرك أن تزوجني ابنتك وتدخلها الليلة، وخذ من النفقة ما تحتاج إليه، وكن عندها، فإذا مضت سبعة أيام فوافني في هذا الموضع فمضى الشاب برسالة داود عليه السلام، فزوجه الرجل ابنته وأدخلوها عليه، وأقام عندها سبعة أيام ثم وافى داود يوم الثامن. (إلى أن مضى ثلاثة أسابيع وهو يوافيه في كل ثامن) فجاء ملك الموت داود، فقال داود صلوات الله عليه: ألست حدّثتني بأنك أمرت بقبض روح هذا الشاب إلى سبعة أيام؟ قال: بلى، فقال: قد مضت ثمانية وثمانية وثمانية، قال: يا داود إن

الله تعالى رحمه برحمتك له، فأخر في أجله ثلاثين سنة»[1].

الحكمة في الاخبار عن القضاء الموقوف:

أما الحكمة في الاخبار عن القضاء الموقوف الذي يعلم الله تعالى أنه لا يقع، فلا تخفى على من أحاط بطريقة الشارع المقدس، من إناطة الحوادث بأسبابها، وترتيب الجزاء على الأعمال الاختيارية، فإذا فعل العبد ما هو عند الله من الأسباب التي يترتب عليها دفع بلاء أو زيادة رزق أو تأخير أجل، فإنه بحسب القاعدة لا بدّ من حصول المسببات، وهذا يقتضي أن يكون هناك أمر مقدّر سابقاً تقاس الزيادة إليه والنقصان عنه، وإلا فمن أين يعلم العبد بها؟!.

خدعة مفتعلة:

لعل من الأسباب الحقيقية وراء الهجمات الشرسة

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار ٤/١١١.

على عقيدة البداء ما وقع من اضطراب عند البعض في فهم أحاديث القدر، الأمر الذي دفعهم لإنكار ما يتعارض مع المبدأ الذي آمنوا اعتماداً عليها، وأما ما قيل من كون القول بالبداء يستلزم نسبة الجهل إليه تعالى فهو مجرد واجهة للتشهير فحسب، كيف وقد رأيت أن أخبار البداء الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام صريحة في دفع ذلك التوهم، كما هي عبارات العلماء أيضاً.

وأما أحاديث القدر التي رويت في موسوعاتهم الحديثية فمن قبيل:

١ ـ «جف القلم بما هو كائن»[١]، أو «بما أنت لاقٍ»[٢] أو «جف القلم على علم الله»[٣]، أو «جفت به الأقلام وجرت به المقادير»[٤] أو «رفعت الأقلام وجفت

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢/١٧٦.
(٢) صحيح البخاري، (كتاب القدر ٧/٢١٠) و(كتاب النكاح ٦/١١٩)، وسنن النسائي ٦/٥٩ ـ ٦٠.
(٣) سنن الترمذي ٥/٢٦ (كتاب الإيمان).
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٧.

الصحف»[1].

٢ ـ «الشقي من شقي في بطن أمه»[2] وما في معناه: «من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء»[3].

٣ ـ «كل ميسر لما خلق له»[4]، أو «كل يعمل لما خلق له أو لما يسر له»[5].

٤ ـ قول آدم لموسى عليهما السلام في الاحتجاج السروي: «أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني»[6].

٥ ـ قول رسول الله ﷺ لأم حبيبة: «إنك سألت الله لآجال مضروبة وآثار موطوءة وأرزاق مقسومة لا يعجل

---

(١) سنن الترمذي ٤/٥٧٦ (كتاب القيامة).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٥، ومسند أحمد بن حنبل ٣/١٧٦.

(٣) سنن الترمذي ٤/٣٨٨ (كتاب القدر).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٩٧ـ١٩٨، وسنن الترمذي ٤/٣٨٨ (كتاب القدر).

(٥) صحيح البخاري/ كتاب القدر ٧/٢.

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢٠٠ـ٢٠٢.

شيئاً منها قبل حله ولا يؤخر منها شيئاً بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر لكان خيراً لك»[1].

وأمثال ذلك من النصوص التي تقتضي بحسب ظاهرها الأولي أن كل ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مقدّر مكتوب لا يتبدّل ولا يتغير، وهذا ـ كما ترى ـ لا يتوافق مع مقتضى أخبار البداء التي تثبت لله سبحانه وتعالى البداء والتغيير والمحو والاثبات وأن قضاءه يردّ بأيسر الدعاء وأقل الصدقة وبصلة الرحم وبأمثال ذلك.

ولعله من أجل ذلك أنكروا البداء وشنعوا على القائلين به، وقد تقدّم ما يتضح معه وجه الجمع بين ما دلّ على أن كلّ ما كان وما هو كائن فهو مقدّر، وبين البداء الذي يقتضي المحو والاثبات، وبيّنا أن القدر لا ينافي البداء أبداً، بل البداء نفسه من القدر، فقد خفيت عليه النكتة على ذوي النظر القاصر، وخفي عليهم أن

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢١٤.

التقدير لا يمنع من التغير والتبديل والمحو والاثبات.

ونحن هنا لسنا بصدد الخوض في تفاصيل القضاء والقدر، فإن له مقاماً آخر ومستقر له بحثاً مستقلاً إن شاء الله، وإنما أردنا الإشارة فقط، لدفع ما يتوهم من التنافي بين البداء والقدر، مما يلقي الضوء على جذور النزاع في هذه المسألة.

﴿ باب ﴾

✿(في انه لا يكون شيء في السماء والارض الا بسبعة)✿

١ ـ عدّةٌ من أصحابنا ، عن أحمد بن محمّد بن خالد ، عن أبيه ؛ ومحمّد بن يحيى

الفعل بواسطة صفة مرجّحة ترجح أصل وجوده أو نحواً من أنحاء وجوده فيها يتميّز الشيء في نفسه فضل تميّز لم يكن قبل الارادة « وبالتقدير قدّر أقواتها » لانّه قد مرّ انّ التقدير عبارة عن تصوير الاشياء المعلومة أوّلاً على الوجه العقلي الكلّيّ جزئيّة مقدرة بأقدار معيّنة متشكّلة بأشكال وهيئات شخصيّة مقارنة لأوقات مخصوصة على الوجه الّذى يظهر في الخارج قبل إظهارها وإيجادها .

قوله : وبالقضاء ، وهو إيجابه تعالى لوجودها الكوني «أبان للنّاس أماكنها» ودلّهم عليها لأنّ الأمكنة والجهات والاوضاع ممّا لايمكن ظهورها على الحواس البشريّة إلّاعندحصولها الخارجيّ في موادّها الكونيّة الوضعيّة ، وذلك لايكون إلّا بالايجاب والايجاد الذين عبّر عنهما بالقضاء والامضاء كماقال «وبالامضاء » وهو إيجادها في الخارج «شرح» اى فصّل عللها الكونيّ «وأبان أمرها» أى أظهر وجودها على الحواسّ الظاهرة «وذلك تقدير العزيز العليم» أى وذلك الشرح والتفصيل والابانة والاظهار صورة تقدير الله العزيز الّذى علم الاشياء قبل تقديرها في لوح القدر ، وقبل تكوينها في مادة الكون .

هذا ما ذكره كلّ على آرائهم واصولهم ولعلّ ردّ علم هذه الاخبار على تقدير صحّتها إلى من صدرت عنه أحوط وأولى ، وقد سبق منّا ما يوافق فهمنا ، والله الهادى إلى الحقّ المبين.

باب في انه لا يكون شيء في السماء والارض الا بسبعة

الحديث الاول : مجهول بسنديه .